

تعديل جذري في معجم المصطلحات الكنسية تحت كلمة "سجدة"

سجدة (صلاة): Genuflection - Genuflexion

أي "صلاة السجدة"، وهو الطقس الذي تمارسه الكنيسة القبطية حتى اليوم، في عصر يوم عيد العنصرة، احتفالاً بحلول الروح القدس على المجتمعين في العلية في اليوم الخمسين لقيامته المخلص، أو بعد عشرة أيام من صعوده إلى السماء. وهو في الحقيقة "الرَّكعة"، وليس "السجدة" وجدير بالذكر هنا، أنه طقسٌ مشتركٌ بين جميع الكنائس الشرقية.

ويذكر الأب جراسيموس مسره في كتابه "الأنوار في الأسرار" أن طقس العنصرة قد أُلْفِه كلٌّ من قزما الأجيوبوليتي ويوحنا الدمشقي (٦٧٥ - ٧٤٩م) أي في القرن الثامن الميلادي^(١).

أما أقدم مخطوط قبطي - معروف حتى الآن - يذكر نص طقس السجدة، فهو مخطوط (قبطي ١١٢) (بورجيا) (١٩٣ ورقة). مكتبة الفاتيكان، وهو باسم "الجموع المبارك" نُسخ باهتمام شمس الرئاسة ابن كبر (١٣٢٤م)، وتاريخ نساخته هو ١٠٢٤ شهداء / ١٣٠٨م^(٢).

وأقدم إشارة وردت عنه في الكنيسة القبطية كانت في زمن الأنبا ميخائيل مطران دمياط في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، وذلك في كتابه: "عادات الأقباط".

وطقس "صلاة السجدة"، هو الطقس الوحيد في السنة الليتورجية الذي تمارسه الكنيسة في عيد سيدي بعيداً عن الإفخارستيا، مركز الاحتفال بالعيد وجوهره. ولقد استطاع العالم الليتورجي أنطون بومشتارك Anton Baumstark أن يكشف عن سبب هذا الأمر، حين تحدّث عن الأصول الأولى لطقس السجدة، وأنه انتقل من أورشليم إلى بقية الطقوس الأخرى. وذكر أن الاحتفال به في أورشليم، كان يجري في عصر يوم العنصرة وليس في الصباح - وهو الوقت الفعلي الذي حلّ فيه الروح القدس على التلاميذ، وعلى المجتمعين معهم، في العلية، كما يذكر سفر الأعمال - وذلك لأن عيد البنديكستي في كنيسة أورشليم لم يكن عيداً مختصاً فقط بحلول الروح القدس، بل كان هو اليوم الذي يُحتفل فيه بكلّ مراحل تدبير الخلاص الذي أكمله الربّ لأجلنا (الميلاد - الغطاس - الآلام - القيامة - الصعود)، وفي ذات المواضيع التي شهدت أحداث هذا الخلاص في المدينة المقدّسة. وهو ما تشير إلى جانب منه، السائحة الإسبانية إيجيريا (القرن الرابع الميلادي) في حديثها عن الموكب الذي كان يجري الاحتفال به بعد ظهر ذلك اليوم، حيث يتّجه الجمع مع الإكليروس إلى جبل الزيتون، ليصنعوا هناك تذكارات صعود الربّ إلى السماء. وهو ما كان يتبعه بالضرورة الاحتفال بحلول الروح القدس قرب نهاية هذا اليوم^(٣).

١ - جراسيموس مسره، مرجع سابق، ص ١١٩، حاشية رقم ١
٢ - ذكرت في الطبعات السابقة، أنه المخطوط رقم (طقس ٣٣١ / سميكه ١٤٤ / جراف ٦٩٦). بمكتبة المتحف القبطي بالقاهرة، والذي يعود تاريخ نساخته إلى سنة ١٣٧٤م. وذلك قبل أن أعثر على مخطوط مكتبة الفاتيكان المذكور في المتن. وقد ذكر الدكتور بورمستر O.H.E. Burmester أن أقدم مخطوط لطقس السجدة محفوظ في كنيسة العذراء بجارة الرّوم، وتاريخ نساخته هو شهر بشنس ١٠٣٢ش / ١٣١٦م.

وهنا، أتقدّم بالشكر للأب الفاضل / وديع الفرنسيسكاني، الذي وافاني بفهرس مقابلة أرقام المخطوطات في كل من المتحف القبطي ومكتبة البطريكية، للأب سمير خليل اليسوعي.

Samir Kh., *Table de concordance des manuscrits arabes chrétiens du Caire, le musée Copte et le patriarcat Copte*.

وبحوي مخطوط الفاتيكان (قبطي ١٢) موضوعات ليتورجية كثيرة، ذكرتها تفصيلاً في كتاب "الميلاد البتولي والظهور الإلهي"، فارجع إليها إن شئت.

3. Anton Baumstark, *Comparative Liturgy, op. cit.*, p. 142.

أما من جهة السُّجود في هذا الطَّقس، فنعرف أنَّ كلَّ القوانين الكنسيَّة تمنع السُّجود يوم الأحد^(٤)، ومن قول للعلامة تريليان (١٦٠-٢٢٥م) نعرف أنَّ عيد العنصرة لا ينبغي السُّجود فيه. فيقول عن عادة السُّجود في الصَّلَاة، وأنها لا تُمارس في عيد القيامة، كما في زمن العنصرة أيضاً، فيقول:

[... أما نحن، فكما تسلّمنا، يجب علينا أن نبتعد في يوم القيامة وحده، لا عن تلك العادة فحسب (أي عادة السُّجود)، بل عن كلِّ تصرُّف أو عمل يُملية الخوف، مؤجِّلين أيضاً أشغالنا، لئلا نُعطي إبليس مكاناً. كذلك أيضاً زمن العنصرة الذي نحتفل فيه بالبهجة عينها]^(٥).

وفي كتاب عهد الرّب (١٢:٢) (التَّصف الثاني من القرن الخامس الميلادي)، نقراً: ”لا يصوم أحدٌ، أو يسجد، في عيد العنصرة، لأنَّ هذه أيام راحة وفرح“.

إلا أنَّ كتاب اللّقان والسَّجدة المطبوع سنة ١٩٢١م قد أشار إلى أنَّ عادة السُّجود أثناء صلوات السَّجدة، كانت قد بدأت في ”زمن الأب مكاروريوس البطريك الأنطاكي“، إثر رياح شديدة حدثت في زمانه، ولكن بدون أن يوضّح أكثر من ذلك. وبالبحث وجدتُ أنَّ هناك أربعة بطارقة للرُّوم الأرثوذكس الأنطاكيين تسمّوا بهذا الاسم^(٦):

الأوّل: البطريك مكاروريوس (٦٥٦-٦٨١م) بطريك الرُّوم الأرثوذكس الذي عيّن بطريكاً لأنطاكية في زمن الخليفة عُمر بن الخطّاب، وكان من أصل ماروني، ورُسم في القُسطنطينيَّة وعاش فيها ست سنين قبل نياحته، فلم يدخل أنطاكية ولم يرها^(٧).

الثاني: البطريك مكاروريوس الأوّل (١٠١٥-١٠٢٣م)، المعروف باسم مكاروريوس الفاضل.

الثالث: البطريك مكاروريوس الثاني (١١٦٤-١١٦٦م).

الرابع: البطريك مكاروريوس الثالث (١٦٤٨-١٦٧٢م)، المعروف باسم ابن الرّعيم. وقد طاف بعد رسامته الكرسي الأنطاكي في مُدنه وقرأ ليتفقد الشَّعب. وذهب إلى القُسطنطينيَّة لجمع الأموال لكنيسته، وتعلّم اللّغة اللاتينيَّة هناك، وزار روسيا مرتين، وأفاد الكنيسة الرُّوسية بكلِّ ما يلزم معرفته من الطَّقوس والتّرتيبات عند اليونان، وأصلح هناك أموراً طقسية خاطئة. وترجم عدّة مؤلّفات من اليونانيَّة إلى العربيَّة، وأنشأ جدولاً بالبطارقة الأنطاكيين، وكتبَ كُتباً أُخرى في الطَّقوس والتّاريخ والكتاب المقدّس والرُّوحيات، وأبحاثاً فلسفيَّة وكنسيَّة مختلفة، ورسالة مطوّلة في الرّد على الذين أنكروا سائر تقاليد الكنيسة الشّرقية. وكانت له أيضاً علاقات ودّية مع الكنيسة الرُّومانية والكنيسة الأرمنيَّة^(٨).

إنَّ هذه الخدمة في يوم عيد العنصرة، من المحتمل جدّاً أنّها كانت معروفة في زمن البطريك الملكاني مكاروريوس الثاني (١١٦٤-١١٦٦م)، إلاَّ أنَّ طقس السُّجود فيها لم يكن قد عُرف بعد، ذلك لأنَّ التّاريخ لا يربط بين هذا البطريك وبين تغيّرات مناخية شديدة، كعواصف (أو زلازل أو براكين)، كالتّي يذكرها ”كتاب اللّقان والسَّجدة، المطبوع سنة ١٩٢١م“.

أما الرّأي الذي حاول أن يربط هذه التغيّرات المناخية بزمن البطريك الأنطاكي ميخائيل الكبير (١١٦٦-١١٩٩م)، وليس البطريك الملكاني مكاروريوس الثاني (١١٦٤-١١٦٦م)، فلم يسفنا في تحديد الزّمن الذي بدأ فيه طقس السُّجود

٤- انظر: يوم الرّب.

٥- الأخت مارسيل هدايا، السَّبّ والأحد في تقليد الكنيسة، مرجع سابق، ص ١١٢

٦- الدُّكتور أسد رستم، كتاب مدينة الله أنطاكية العظيمة، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٣٧٨، الجزء الثالث، ص ٤٠٣ انظر أيضاً: خريسوستمُس بابا دوبلوس، مرجع سابق، ص ٥٤٠، ٧٣٤، ٧٥٠ وما بعدها.

٧- بحسب المؤرّخ خريسوستمُس بابا دوبلوس، كانت رئاسته خلال المدة (٦٥٤-٦٨١م)، وتمَّ تجريدّه. ولهذا السَّبب، يبدو أنه لم يُحسب ضمن سلسلة البطارقة الذين تسمّوا بهذا الاسم.

٨- رغم مرور الدُّكتور أسد رستم على البطارقة السّابقيين له باسم مكاروريوس، مروراً عابراً، يفرد فصلاً كاملاً (وهو الفصل الثّامن والأربعين) لهذا البطريك.

انظر: الدُّكتور أسد رستم، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٤٨-١٠٢

الكامل في هذه الخدمة، لأنه رأى يتكلّم عن زلزال - وليس عن ربح عاصف - حدث في عيد القديسين بطرس وبولس وليس في عيد الخمسين. وهو ما ذكره البطريرك الأنطاكي ميخائيل الكبير في مؤلّفه: "التاريخ الكبير"، وينقله عنه مار غريغوريوس أبي الفرج بن العبري (١٢٢٥-١٢٨٦م) في كتابه: "تاريخ الزّمان"، ضمن أحداث يوم الاثنين ٢٩ حزيران (يونيه)، الموافق ١٢ شوال سنة ١١٧٠م^(٩). كما أنّ مصادرنا الطّقسيّة القديمة في الكنيسة القبطيّة حتى القرن السّابع عشر الميلادي، لا تذكر أيّ سجود كامل إلى الأرض في هذه الخدمة. وكل ما يُذكر فيها، هو إمّا إحناء الرأس، أو الرُّكوع على الرُّكبتين. وهو ما يدحض نهائيّاً أن يكون طقس السُّجود الكامل قد حدث في القرن الثّاني عشر الميلادي.

وعلى ذلك فليس أمامنا سوى البطريرك الملكاني مكاريوس الثّالث (١٦٤٨-١٦٧٢م)، المعروف باسم ابن الزّعيم، في النّصف الثّاني من القرن السّابع عشر الميلادي، ليكون هو البطريرك المقصود. وإذا عرفنا أنّ الكنيسة البيزنطيّة كانت تمارس طقس السّجدة في عصر يوم العنصرة، قبل أن تنقل الاحتفال به إلى الصّباح في عصور متأخّرة، فهل يمكن القول بأنّ الكنيسة البيزنطيّة كانت من وراء طقس السُّجود الذي ظهر في هذه الخدمة، ومنها انتقل هذا الطّقس إلى بقية الكنائس الأخرى، حتى وصل إلى الكنيسة القبطيّة؟

والحديث عن "السُّجود" الذي يشير إليه كتاب اللّقان والسّجدة، لا يعني "السُّجود الكامل إلى الأرض"، لأنّ نصوص الصّلوات - باستثناء مرّدات الشّمّاس في هذه الصّلوات - لا يرد بها أيّ ذكر للسُّجود الكامل إلى الأرض^(١٠).

وإنما المقصود هو الرُّكوع على الرُّكبتين ... إلخ

٩- كتاب "تاريخ الزّمان"، لأبي الفرج جمال الدّين بن العبري، نقله إلى العربيّة الأب اسحق أرمله، إصدار المشرق، بيروت، سنة ١٩٨٦م، ص ١١٨٣ نقلاً عن الباحث مدحت حلمي تادرس، الأنبا بطرس أسقف بهنسا، مجلة مدرسة الإسكندريّة، السّنة الأولى، العدد الثّاني، مايو- أغسطس ٢٠٠٩م، ص ١٥٩، ١٦٠.
١٠- انظر: سجود.